إميل زولا

Émile Zola

Telegram:@mbooks90

السيدة نيجون

ترجمة وتقديم: إسكندر حبش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيدة نيجون

بعد «من أجلة ليلة حب» (1883) التي سرد فيها إميل زولا عن استعباد الإرادة عبر الشغف العاشق، كما عن اللاعدالة الاجتماعية، التي عرف الكاتب عنها بأنها اللاعدالة التي تحمي أصحاب الثروات مهما كانت عليه جرائهم، (صدرت سابقا عن منشورات «خطوط وظلال») ننقل هنا «نوفيلا» أخرى لـ زولا بعنوان «السيدة نيجون».

صدرت هذه «القصة الطويلة العام 1884، أي بعد سنة من قصته السابقة، وهو ينحو فيها أكثر إلى تصوير بعض المشاهد من الحياة السياسية العامة في فرنسا ذلك العصر، على خلفية «حبٍ مجهض» (إن جاز القول)، لم يصل إلى مبتغاه، كما أيضا على خلفية علاقات غرامية متشعبة، غير شرعية، لكن لا أحد يقف ضدها، لأنها تقود إلى السلطة والمنصب.

يُدخلنا الكاتب في أجواء ترتيبات تجري من أجل الانتخابات النيابية، وكيفية إيصال مرشح الى منصب ما. لكن ذلك كلّه، يمر عبر قصة شخص شاب، ينتمي إلى طبقة النبلاء الآتين من خارج باريس، من الريف، ترغب عمته – الثرية، التي تستقبل «نخبة المجتمع» في منزلها – في أن تُعرفه إلى السيد نيجون، أحد نواب المنطقة، ليوظف لها ابن أخيها هذا في إحدى الوزارات. تمرّ أحداث هذه القصة الطويلة (أو هذه الرواية القصيرة) من دون أن يلتقي بالسيد نيجون، بل بزوجته التي يقع أسير غرامها. واعتقد فيما إعتقده عن هذه السيدة، إن ساعدها في إنجاح شخص آخر بالوصول إلى منصب نائب عن منطقته، فهي ستسمح له بممارسة الغرام معها.

ما بين التهويمات والفانتسمات، ندخل إلى حياة طبقة من الطبقات العليا. لم يكن زولا بحاجة إلى خطابات سياسية، ليقص علينا تمفصلات المجتمع وتحولات أخلاقه، بل يكفيه بعض الأحداث الصغيرة، ليلتقطها وينسج حولها، كتابة، لن تترك القارئ إلا بعد أن ينتهي منها، مثلما انتهت السيدة نيجون من هذا الشاب بعد أن حققت ما كانت تصبو إليه، من دون أن يحدث أي شيء بينهما.

«السيدة نيجون»، هي قصة الاطراء المتبادل والتزلف والتقرب والاغواء ما بين

نساء «زانيات» ورجال مخدوعين... كما هي أيضا قصة الصراع ما بين المظاهر والواقع! لنقل هي أيضا قصة التعلّم، تعلم الراوي ماهية الحياة الباريسية حيث أن كل نجاح فيها له ثمن. فهو يتعلم كيف يقترب من نساء المجتمع الراقي، لكي يطلب منهن الخدمات التي توصله إلى تحقيق طموحه السياسي والاجتماعي. من هنا اقترب من السيدة نيجون، تلك المرأة الغامضة، الجاذبة والهاربة في الوقت عينه، الصامتة والخارقة... والتي تخفي ابتسامتها الكثير من الأشياء التي لم يكن هذا الشاب قد توصل إلى فك طلاسمها بعد.

ما يلفت نظرنا في هذه الـ «نوفيلا» الممتعة، أن كتابة زولا فيها كانت أقل كثافة عمّا اعتدنا عليه في أدبه، كما أن شخصياته أقل توترا، بمعنى آخر تصح فيها ما قاله بعض النقاد عنها، بأننا نشعر أنفسنا وكأننا نقرا فصلا من «الكوميديا الإنسانية» لـ بلزاك أكثر من كوننا نقرأ عالم زولا الملقي بثقله علينا. وبرغم من أن صورة بعض النساء هنا هي صورة «مهتزة» إلا أن الكاتب لا يخلع عنهن كرامتهن! ...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

I

ها قد مضت ثمانية أيام، منذ أن سمح لي والدي، السيد فوجولاد، بمغادرة «لو بوكيه»، القصر القديم الكئيب الذي ولدت فيه، والواقع في منطقة النورماندي السفلى. يملك والدي أفكارا غريبة حول الأزمنة الراهنة، إذ يتخلّف عن زمنه نصف قرن على الأقل. ها أنا أخيرا، أقيم في باريس التي بالكاد أعرفها، إذ سبق لي أن عبرتها مرتين. ولحسن الحظ، لم أكن شخصا أخرق. زعم فيليكس بودان، زميلي السابق في ثانوية كاين، حين رآني، بأنني كنت خارقا وبأن الباريسيات سيشغفن بي. دفعني ذلك إلى الضحك. بيد أنه، حين رحل فيليكس، تفاجأت من نفسي وأنا أقف أمام مرآة، أنظر إلى طولي وعرضي، مبتسما من أسناني البيضاء ومن عينيّ السوداوين. رفعت كتفيّ في نهاية المطاف، إذ أنني لست سمينا.

البارحة، وللمرة الأولى، أمضيت سهرتي في صالون باريسي. لقد دعتني كونتيسة P، التي يمكن اعتبارها بمثابة عمتي، إلى العشاء. كان السبت الأخير من الشهر. رغبت في أن تقدمني إلى السيد نيجون، وهو نائب عن دائرتنا في «غومرفيل»، عُيّن لتوّه وكيل وزارة، وهو في طريقه، كما يقال، لأن يصبح وزيرا. أعلنت لي عمتي بوضوح – وهي أكثر تسامحا من والدي – بأن شابا في عمري، لا يمكن له أن يعبس في وجه بلده، وبخاصة أنه يعيش في جمهورية. تريد أن تجد لي وظيفة في مكان ما.

- سأتكفل أنا بإقناع هذا العجوز فوجولاد، العنيد، قالت لي. دعني أقوم بذلك، عزيزي جورج.

وصلت عند الكونتيسة، عند الساعة السابعة تماما. لكن يبدو أنهم يتناولون طعام العشاء، في ساعة متأخرة بباريس؛ كان المدعوون يصلون الواحد تلو الآخر، وفي السابعة والنصف، لم يكن الجميع قد حضروا بعد. أعلمتني الكونتيسة بنبرة يائسة أن السيد نيجون لن يكون حاضرا؛ إذ اضطر أن يبقى في فرساي لسبب ما يتعلق بتعقيدات برلمانية. ومع ذلك، فهي تأمل أن يأتي في لحظة ما خلال السهرة. ولرغبتها في ردم هذه الهوّة، قامت بدعوة نائب آخر من نواب محافظتنا، الضخم غوشورو، مثلما نسميه هناك، وقد سبق لي أن عرفته، حين قمت معه مرة برحلة صيد. كان غوشورو هذا رجلا قصيرا، مبتهجا، ترك للحيته العنان منذ فترة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قصيرة، كي يتخذ محياه شكلا جديا أكثر. كان وُلِد في باريس، من موظف عادي فقير، يعمل في وزارة العدل؛ إلا أن لديه عمّا في منطقتنا، كان غنيًا ومقتدرا، قرر، ولا أعرف بأي وسيلة، أن يترك له مقعدا للترشح في الانتخابات. كنت أجهل أنه رجل متزوج. أجلستني عمتي، على الطاولة، بالقرب من سيدة شابة شقراء، ناعمة التقاطيع وجميلة، يناديها الضخم غوشورو باسم بيرت، بصوت مرتفع.

انتهى الأمر بأن اكتمل العدد. كان لا يزال ضوء النهار، المائل إلى الغروب، ينير الصالة، لكننا دخلنا فجأة إلى قاعة ذات ستائر مسدلة، تضيئها ثرية كريستالية ومصابيح. بدا أثر ذلك أمرا متفردا وخاصا. وبينما كان الجميع يتخذون أمكنتهم، بدأوا يتحدثون عن هذه الأعشيات الأخيرة في فصل الشتاء، الذي يحيلها الغسق إلى جلسات حزينة. تكره عمتي هذا الأمر. بيد أن المحادثة تأبدت حول هذا الموضوع، حول كآبة باريس حين نجتازها عند المغيب، في عربة ونحن ذاهبون لتلبية دعوة ما. فضلت الصمت، إذ لم ينتابني هذا الإحساس قط، في عربتي، على الرغم من المطبات القاسية التي ارهقتني بقسوة على مدى نصف ساعة. لقد ملأتني باريس، عند اشتعال أولى أنوار مصابيح الغاز، برغبة عارمة في جميع المتع التي ستشتعل.

حين بانت المقبلات، ارتفعت الأصوات، وبدأ النقاش بالأمور السياسية. تفاجأت من سماع عمتي وهي تدلي بآرائها. النساء الأخريات، كنّ مع ذلك، على دراية بالأمر، وكنّ ينادين الرجال بأسمائهم فقط، لكي يحكموا يقرروا. كان غوشورو، الجالس قبالتي، يحتلّ مكانا ضخما، يتحدث بعنف، من دون أن يتوقف عن تناول الطعام والشراب. لم تكن هذه الأمور تثير فيّ أي اهتمام، إذ تنقصني الكثير من المعلومات، لينتهي بي الأمر بأن لا أهتم إلا بتلك الشابة الجالسة قربي، السيدة غوشورو، بيرت، مثلما أصبحت أسميها، اختصارا. إنها رائعة الجمال حقا. بدت لي أذنها ساحرة بشكل خاص، أذنا صغيرة مستديرة، وخلفها تتجعد خصلات من الشعر الأصفر. كانت بيرت تملك واحدة من تلك الرقاب المثيرة ببياضها، المكسوة بزغب متماوج. حين تحرك كتفيها أحيانا، يتثاءب ثوبها، ذو الفتحة المقورة المربعة، من الخلف قليلا، فأتابع – من رقبتها إلى خصرها – تلك التموجات اللينة الشبيهة بتموجات هزَ. أحببت بشكل أقل شكل وجهها الجانبي الذي وجدته على قدر من الحدة. تتحدث في السياسة بجدية أكثر من الآخرين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سيدتي، أترغبين في النبيذ؟ ... هل أمرر لك الملح، سيدتي؟

حاولت أن أبدو مهذبا، حاولت التكهن بأقل رغباتها، محاولا تفسير تحركاتها ونظراتها. كانت قد نظرت إلي بثبات ونحن نجلس على الطاولة، وكأنها تحاول القضاء علي بالضربة القاضية.

- تُشعرك السياسة بالسأم، أليس كذلك؟ قالت لي أخيرا. من جهتي، إنها تشعرني بالإرهاق. لكن ماذا تريد أن نفعل؟ علينا أن نتحدث. ولا أحد الآن، في العالم، إلا ويتحدث بالسياسة.

وفجأة انتقلت إلى حديث آخر.

- هل أن غومرفيل مكان جميل؟ لقد رغب زوجي، في الصيف الماضي، أن يصطحبني عند عمّه؛ لكنني شعرت بالخوف، تحججت بأنني مريضة.

- إنها بلاد خصبة جدا، أجبت. ثمة العديد من المراعي الجميلة.

- حسنا! فهمت الأمر، أكملت كلامها وهي تضحك. هذا مرعب. بلاد مسطحة بالكامل، لا شيء سوى الحقول والحقول، ودائما هناك الستارة عينها من شجر الحور في البعيد.

رغبت في أن أتحدث من جديد، بيد أنها أدارت وجهها، كانت تناقش قانونا جديدا حول التعليم العالي، مع الجالس إلى يمينها، الذي يبدو عليه أنه شخص جدي بلحيته البيضاء. أخيرا تطرقوا في أحاديثهم على المسرح. وحين انحنت لكي تجيب عن سؤال، طُرح من على أقصى الطاولة، سبب لي تموج عنقها الأبيض الشبيه بعنق القطط، رعشة ما. في «لو بوكيه»، وفي انتظارات وحدتي الصمّاء، حلمت بعشيقة بيضاء؛ لكنها كانت متمهلة، بوجه نبيل وبمحيا فأرة، كانت شعيرات بيرت المجعدة تزعجني. وبما أنهم كانوا يقدمون الخضار، انزلقت في قصة مجنونة، سأرتب تفاصيلها تدريجيا: كنا وحدنا، هي وأنا؛ وضعت قبلة على عنقها من الخلف، التفتت إلي وهي تبتسم؛ حينذاك، رحلنا معا إلى بلد بعيد جدا. جاء دور التحلية. التصقت بي لحظتها، قائلة بصوت خفيض:

- أعطني صحن الحلويات هذا، الذي أمامك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدا لي أن في عينيها مداعبة ناعمة، كما أن التصاق ذراعها العاري، الخفيف، بكمّ ملابسي، أشعرني بدفء لذيذ.

- أعشق السكاكر، وأنت؟ أكملت حديثها قائلة، وهي تقضم فاكهة مجففة.

أثارتني هذه الكلمات البسيطة، لدرجة تخيلت معها نفسي أنني وقعت في العشق. وما أن رفعت رأسي، حتى لمحت غوشورو، الذي كان يشاهدني وأنا أتحدث مع زوجته بصوت خفيض: كان يطل بوجهه السعيد، ويبتسم لي ابتسامة مشجعة. أشعرتني ابتسامة الزوج بالراحة.

كان العشاء يصل إلى نهايته. لم يتهيأ لي من قبل أبدا، بأن الأعاشي في باريس ستكون أكثر روحانية ممّا هي عليه في كاين. وحدها بيرت من فاجأني. تذمرت عمتي من الحرارة، فعاد الحديث من أوله حول الموضوع عينه، تناقضوا في دعوات فصل الربيع، ليختموا أحاديثهم بالقول، إن المرء لا يأكل فعلا بشكل جيد، إلا في فصل الشتاء. من ثم، انتقل الجميع إلى الصالة، لتناول القهوة.

شيئا فشيئا توافد العديد من الناس. امتلأت بهم الصالات الثلاث كما صالة الطعام. التجأت إلى زاوية، وكما أن عمتي كانت تمرّ بالقرب مني، قالت لي بسرعة:

- جورج، لا ترحل... لقد وصلت زوجته. وعد أن يأتي لاصطحابها، وسأعرفك به.

كانت لا تزال تتحدث عن السيد نيجون. إلا أنني لم أكن أستمع إليها مطلقا، إذ سمعت شابين يتبادلان الحديث أمامي بكلمات سريعة، ما أثار عاطفتي. كانا يتكئان على أحد أبواب الصالة الكبيرة، وفي اللحظة التي دخل فيها فيليكس بودان، زميلي السابق في كاين، وحيّا السيّدة غوشورو، حتى قال الشاب الأصغر لمن معه:

Telegram:@mbooks90

- ألا يزال برفقتها دائما؟

- أجل، أجابه الشخص الأكبر سنًا. آه! ارتباط على الأصول. سيستمر الأمر الآن، إلى فصل الشتاء. ما من مرّة احتفظت بشخص لمدة طويلة.

لم يسبب هذا الأمر، بالنسبة إلي، عذابا أليما، لم أشعر سوى بجرح بسيط، جرح الحب. لِمَ قالت لي، بنبرة حنونة جدا، إنها تعشق السكاكر؟ بالتأكيد، لا أنوي منازعة

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

فيليكس عليها. أقنعت نفسي في نهاية الأمر، بأن هذين الشابين يفتريان على السيدة غوشورو. أعرف عمتي جيدا، لا يمكنها أن تستقبل في منزلها نساء قد يتعرضن للخطر. أسرع غوشورو ليقف أمام فيليكس، لكي يصافح يده؛ ربت على كتفه بودّ، وغطاه بنظرة مليئة بالحنان.

- آه! ها أنت هنا، قال لي فيليكس، حين اكتشف وجودي. جئت من أجلك... حسنا، هل تريدني أن اقودك؟

بقينا واقفين، نحن الاثنين، عند فتحة الباب. رغبت فعلا في أن أسأله عن السيدة غوشورو؛ إلا أنني لم أعرف كيف أقوم بذلك بشكل انسيابي. ومع بحثي عن طريقة انتقالية، كنت أساله عن جمهرة من الأشخاص الآخرين، الذين لا أبالي بهم في واقع الأمر. كان يسمي لي الحاضرين، يملك معلومات دقيقة عن كل واحد فيهم. فهو، المولود في باريس، كان قد أمضى سنتين فقط في ثانوية كاين، بينما كان والده محافظ منطقة كالفادوس. وجدته يتكلم بحرية مطلقة. غمزت ابتسامته شفته السفلى، حين سألته تفاصيل عن بعض النساء الحاضرات.

- إنك تنظر إلى السيدة نيجون؟ قال لي فجأة.

في الحقيقة، كنت أنظر إلى السيدة غوشورو. وسرعان ما أجبته بشكل أخرق للغاية:

- السيّدة نيجون، آه! أين هي؟

- تلك المرأة السمراء، هناك، الواقفة بالقرب من المدخنة، التي تتحدث مع امرأة شقراء ترتدي الفستان المقور من على الصدر.

في الواقع، بالقرب من السيدة غوشورو كانت هناك سيدة لم ألحظها أبدا، وكانتا تضحكان.

- آه! إنها السيدة نيجون، رددت كلامي هذا مرتين.

وتأملتها جيدا. مغيظٌ جدًا أن تكون سمراء، لأنها بدت لي أيضا امرأة ساحرة، وأصغر سنًا من بيرت بقليل، مع تاج شعرها الأسود. عيناها، وفي الوقت عينه، ساطعتان وحنونتان. صغيرة الأنف، مرهفة الفم، غمازتان على خديها، تشيران معا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى طبيعتها المضطربة والعميقة التفكير. هكذا جاء انطباعي الأول عنها. لكن، وبعد تمعني فيها، اضطرب حكمي، إذ وجدتها أكثر جنونا من صديقتها، وصوت ضحكتها أعلى.

- هل تعرف نيجون؟ سألني فيليكس.

- أنا، ابدا. تريد عمتي أن تقدمني له.

- أواه! كائن تافه، هو الخرق بالذات. الرداءة السياسية بأبهى تجلياتها، أحد هذه الثقوب التي تتكلم، والمفيدة جدا تحت النظام البرلماني. وبما أنه لا يملك حتى فكرتين خاصتين به، لذا تجد أن كلّ رؤوساء الأركان يستغلونه، لديه تحالفات هي الأكثر تناقضا.

- وزوجته؟ سألت.

- زوجته، حسنا! كما تراها. إنها ساحرة الجمال... إن رغبت في الحصول على شيء منه، عليك أن تغازل زوجته.

أظهر فيليكس عن رغبته بعدم إكمال الحديث. لكن، في المحصلة النهائية، جعلني أفهم بأن السيدة نيجون هي السبب في ثروة زوجها وبأنها تستمر في السهر على ازدهار الحياة الزوجية. باريس بأسرها تتحدث عن عشاقها.

- والسيدة الشقراء؟ سألته فجأة.

- السيدة الشقراء، أجاب فيليكس من دون أي اضطراب، هي السيدة غوشورو.

- أهي سيدة نزيهة؟

- من دون شك هي سيدة نزيهة.

بدت على وجهه مسحة من القلق، لم يستطع إخفاءها؛ عادت ابتسامته لتظهر من جديد، حتى أنه خُيّل لي، بأني قرأت على محيّاه اعتدادا بالنفس جعلني أشعر بالغضب. بدون شك، لاحظت الامرأتان أننا نتحدث عنهما، إذ اجتهدتا في إخراج ضحكتيهما عاليا. بقيت وحدي، فقد اصطحبت إحدى السيدات فيليكس؛ فأمضيت السهرة بمقارنة الواحدة بالأخرى، شعرت باني مجروح ومستلب، ولا أفهم شيئا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأعاني من هذا القلق، قلق إنسا يخشى أن يرتكب بعض الحماقات في عالم لا يعرف عنه شيئا بعد.

- إنه شخص ممل، لن يأتي، قالت لي عمتي، حين وجدتني لا أزال واقفا، في زاوية الباب عينها. الأمر عينه دائما، في أي حال... أخيرا، إنه منتصف الليل تقريبا، وزوجته لا تزال تنتظره.

استدرت عبر صالة الطعام، لأذهب وأتسمر على باب الصالة الآخر. بهذه الطريقة، أجد نفسي خلف هاتين السيدتين. ما أن وصلت لتوي، حتى سمعت بيرت تنادي صديقتها لويز. جميل هو اسم لويز. كانت ترتدي فستانا عاليا، يسمح لنا كشكشه بأن نرى فقط، تحت كعكة شعرها الثقيلة، خط عنقها الأبيض. بدا لي، للحظة، هذا البياض المتكتم، أكثر إثارة من ظهر بيرت العاري بالكامل. لم أعرف تحديد رأيي لاحقا، فالاثنتان بديعتان، والخيار بينهما مستحيل، نظرا إلى حالة الاضطراب التي أنا فيها.

في تلك الأثناء، كانت عمتي تبحث عني في كل مكان. كانت الواحدة بعد منتصف الليل.

- لقد غيرت الباب إذًا؟ قالت لي. هيا، لن يأتي: نيجون هذا ينقذ فرنسا كل مساء... لكني ما زلت أرغب في تقديمك لزوجته، قبل أن ترحل. كن محبا، فهذا مهم جدًا.

وبدون أن تنتظر جوابي، سمرتني الكونتيسة أمام السيدة نيجون، متلفظة باسمي وبما أفعله بجملة واحدة. بقيت محرجا جدا، وبالكاد وجدت بعض الكلمات لاتلفظ بها. كانت لويز تنتظر، بابتسامتها؛ لكن وبعد أن رأت بأنني لست على قدر الموقف، رضخت للأمر ببساطة. بدا لي أن السيدة غوشورو تسخر مني. نهضت الامرأتان وانسحبتا. في الردهة، حيث وضعت خزانة ملابس الزوار، أصابهما مس من الفرح المجنون. لم يشعر بالدهشة من عنانهما، من تصرفاتهما الصبيانية، من هذا العفو الجريء، أحد غيري. بدأ الرجال بالابتعاد، ألقوا عليهما التحية وهم في طريقهم، بمزيج من التهذيب الكبير والرفقة الدنيوية الذي أذهلني.

وفر لي فيليكس مكانا في سيارته. لكنني نجحت في الهرب، أرغب في أن أبقى

وحدي؛ ولم أصعد إلى أي عربة، إذ كنت سعيدا بالسير على قدمي، في صمت الشوارع ووحدتها. شعرت بأنني محموم، كما نشعر عند اقتراب مرض ما خطير. هل من شغف ما ينبت في داخلي؟ ومثل المسافرين الذين يشيدون بالمناخ الجديد، كنت ذاهبا لاختبار الهواء في باريس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

II

عدت والتقيت بهاتين السيدتين خلال فترة بعد الظهيرة هذه، في معرض للرسم، يفتح أبوابه اليوم تحديدا. أعترف بأنني كنت على علم بأنني سألتقي بهما، وبأنني سأجد صعوبة كبيرة لإبداء رأيي حول قيمة هذه اللوحات التي يبلغ عددها نحو ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف لوحة، والتي سرت أمامها خلال أربع ساعات. يوم أمس، كان فيليكس قد عرض عليّ المجيء لاصطحابي عند الظهيرة؛ لكي نتناول الغذاء في مطعم في «الشانزيليزيه»، ومن ثم نذهب إلى المعرض.

فكرت بالموضوع كثيرا، منذ تلك السهرة عند الكونتيسة، إلا أنني أعترف أن ذلك لم يجعل أفكاري واضحة كثيرا. أيّ عالم غريب هو هذا العالم الباريسي، المهذب جدا، والفاسد جدا في الوقت عينه! لست أبدا ناصحا أخلاقيا متحجرا، بيد أن ذلك لا يمنعني من أن أشعر بالانزعاج كلّما فكرت بالأشياء الفاضحة التي سمعتها، في أحاديث الرجال، في زوايا صالة عمتي. سماعي لعباراتهم الفجة، السوقية، المتبادلة فيما بينهم بصوت خفيض، بينما نصف النساء اللواتي كنّ هنا، يتصرفن مثل المتسولات؛ بدا ذلك، تحت شعار مدنية الأحاديث والتصرفات، بمثابة فجاجة في التقديرات عرتهن كلهن، الأمهات والفتيات، لتصيب الشريفات منهن كما السيئات بالوساخة. كيف يمكن معرفة الحقيقة، وسط هذه الاقاصيص المحفوفة بالمخاطر، وسط هذه التأكيدات المتخذة من النظرة الأولى، والتي تقرر فضيلة المرأة أو وقاحتها؟ ظننت للوهلة الأولى بأن عمّتي، على الرغم مما يقوله والدي عنها، كانت تستقبل عددا لا بأس به من السفهاء. بيد أن فيليكس زعم لي أن الوضع متشابه تقريبا في جميع الصالونات الباريسية؛ حتى أن سيدات المنازل، الأكثر تزمتا، عليهن أن يظهرن أنفسهن أكثر تسامحا، وإلا سيكنّ الفراغ الكامل عندهن. هدأت ألسنة ثوراتي الأولى، ولم يعد أمامي إلا تلك الحاجة الحسية للاستفادة، بدوري، من هذه السهولة في الاصطفاء، من هذه المتع المقدمة بنعمة تثير التوتر.

كلّ صباح، منذ أربعة أيام، لا يمكنني الاستيقاظ، في شقتي الصغيرة الواقعة في شارع لافيت، من دون أن أحلم بــ لويز أو بــ بيرت، حيث أصبحت أسميهما باسميهما بشكل مألوف. أشعر أن في داخلي تحدث ظاهرة غريبة، إذ انتهى بي الأمر في الالتباس بينهما. تيقنت اليوم بأن فيليكس كان بالفعل عشيق بيرت، ولم

يجرحني ذلك، بل على العكس؛ كنت أرى في ذلك تشجيعا، يقينا بأن أجعلهما يحبانني. كنت أربط فيما بينهما هما الاثنتان إذًا: فبما أنهما انساقتا إلى آخرين فلمَ لا تنساقان إليّ؟ شكل ذلك استمرارية حلم يقظة لذيذ، ساعة نهوضي. كنت أتأخر في سريري، مستمتعا من دفء الأغطية، متقلبا في فراشي لأكثر من عشرين مرّة، شاعرا بكسل سعيد في أعضائي. وكنت أتجنب تحديد أي شيء، إذ كان من الممتع بالنسبة إليّ أن أبقى في ضبابية إيجاد حلّ لهذه العقدة على طريقتي. كنت بذلك أستطيع تنقية الظروف التي ستسوق فيها ذات يوم بيرت أو لويز، وحتى لم أكن أرغب في معرفة أي واحدة منهما بالضبط. في النهاية، كنت أنهض، مع اعتقادي الراسخ، بضرورة الاختيار، لكي أصبح سيد هذه الفتاة أو تلك.

حين دخلنا إلى القاعة الأولى من قاعات معرض الرسم، تفاجأت بالحشد الهائل الذي كاد يختنق فيها.

- يا إبليس! هممم فيليكس، وصلنا متأخرين قليلا. علينا أن نلعب لعبة الدفع بأكواعنا.

كان حشدا على درجة كبيرة من التنوع؛ فنانون، بورجوازيون، أهل المجتمع. ووسط السترات الفوقية المكوية بشكل سيء وسترات الرودونغوت الغامقة اللون، كانت هناك الألبسة النسائية الفاتحة، هذه الألبسة الربيعية البهيجة في باريس، بحرائرها الناعمة وتزييناتها الحية. وكنت أشعر بالسعادة القصوى من جراء ثقة النساء الهادئة، اللواتي يقطعن أكثف المجموعات، من دون إعارة أي اهتمام لما يجزنه من أذيال أثوابهن، إذ ينتهي الأمر بأمواج الدانتيلا بالمرور دوما. هكذا كنّ يتبخترنَ، على أقدامهن، من لوحة إلى أخرى، كي يجتزن معرضهن. الباريسيات فقط، كنّ من يحتفظن بطمأنينة الالهات، وسط هذه الحشود الشعبية، كما لو أن ما يُسمع من كلمات – وبعد أن يستوعبن الصدمة – لا يمكنها الوصول إليهن وتلويثهن. لاحقت بنظري، للحظة، سيدة، قال لي فيليكس عنها أنها دوقة أ....؛ ترافقها ابنتاها، البالغتان ستة عشر عاما، وثمانية عشر؛ كنّ هاته الثلاث ينظرن من دون أن يرف لهم جفن، إلى لوحة تمثل ليدا (*)، بينما، خلفهن، مجموعة من الفنانين الشبّان تسخر من اللوحة بعبارات غير متحرجة.

التزم فيليكس البقاء في الصالات التي إلى جهة اليسار، حيث تُعرض متواليات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من القطع الكبيرة المربعة، وحيث الحشد كان أقلّ كثافة. ثمة نهار أبيض يتسلّل من الأسقف المزججة، ضوء قوي يجعل من قماش اللوحات أشبه بالمنخل؛ بيد أن الغبار الذي تثيره أقدام الناس كان يرافع كدخان خفيف فوق أمواج الرؤوس. توجب على النساء أن يبدون رائعات الجمال، كي يقاومن هذه الإضاءة، هذه النبرة المتوحدة، التي تبقعها اللوحات بعنف، على أربع أرجاء الجدران. في هذا الجانب، كان هناك ترقيش ألوان مدهش متفجرة، من الأحمر والأصفر والأزرق، فُسوق قوس قزح بين ذهب الإطارات الفاقع. بدأ المكان يصبح حارا. رجال ضلعٌ برؤوس باهتة اللون، يتنزهون وهم ينفخون، وقبعاتهم بأيديهم. كلّ الزوار يرفعون أنوفهم في الهواء. يتدافع البعض أمام لوحات معينة. تنتج عن ذلك تيّارات، اندفاعات، هيجان قطعان بشرية أفلتت على هواها في أرجاء القصر. ومن دون هوادة، تُسمع قرقعة الأقدام المستمرة فوق الأرض الخشبية، التي تصاحب صخب هذا الشعب الأصمّ والممتدّ، الذي يزار كبحر.

- أنظر! قال لي فيليكس، ها هي الآلة الكبيرة التي طالما تحدثوا عنها.

ثمة خمسة صفوف طويلة من البشر تتأمل الالة الكبيرة. هناك نسوة يضعن نظاراتهن، فنانون يتحدثون بصوت خفيض، بخبث، سيد كبير جاف يدون بعض الملاحظات. بالكاد كنت أنظر إلى ذلك كله. لمحت فجأة، في قاعة مجاورة، سيدتين تضعان مرفقيهما على عارضة الارتكاز، أمام لوحة التعليق، سيدتين تتفحصان بدأب لوحة صغيرة. لم يكن الأمر بداية سوى لمحة برق: تحت لوحة القبعات، رأيت جدائل سوداء كثيفة وخصلات شعثاء من شعر أشقر؛ من ثم، اختفت الرؤية، إذ أن موجة الحشود، رؤوس الأغنام هذه، قد أغرقت السيدتين. أقسم أنهما كانتا هما. وعلى بعد عدة خطوات، بين الرؤوس التي لا تتوقف عن الحركة، عدت لألتقي بالشعر الأشقر تارة، وطورا الجدائل السوداء. لم أقل شيئا لـ فيليكس، بل اكتفيت بأخذه إلى القاعة المجاورة، محاولا التصرف بشكل يجعله التعرف إلى السيدتين أولا. هل رآهما مثلما رأيتهما أنا؟ سأصدق ذلك، إذ نظر إلي نظرة مائلة، ذات سخرية رهيفة.

- آه! أي صدفة سعيدة! صرخ وهو يلقي عليهما التحية.

استدارت السيدتين وابتسمتا. كنت أنتظر وقع هذا اللقاء الثاني. كان حاسما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد قلبت السيدة نيجون كياني، بمجرد نظرة من عينيها السوداوين، في حين أنه تراءى لي بأني أعود وألتقي بصديقة حين نظرت إلى السيدة غوشورو. هذه المرّة كانت الضربة القاضية. تضع على رأسها قبعة صغيرة صفراء، يلفها غصن من شجر البليع؛ أما ثوبها فمن حرير ليلكي اللون، مزين بالساتان القشيب، لباس صيفي يلفت الانتباه مثلما هو رقيق في الوقت عينه. لكني لم اتفحصه إلا فيما بعد؛ إذ، عند النظرة الأولى، ظهرت لي كأنها تظهر من شمس، كما لو أنها أفاضت النور من حولها.

في هذه الأثناء كان فيليكس يثرثر.

- ماذا؟ لا شيء ملفت، قال. لم أر شيئا بعد.

- يا إلهي! قالت بيرت، كما في كلّ سنة.

استدارت صوب خشبة العرض المعلقة:

- أنظروا إلى هذه اللوحة الصغيرة التي اكتشفتها لويز. رسمة الثوب ناجحة جدا! كان لدى السيدة دو روشوتاي ترتدي ثوبا مماثلا، في حفل الإليزيه الأخير.

- صحيح، همهمت لويز؛ فقط التخاريم كانت مربعة فوق المريول.

تفحصتا اللوحة الصغيرة من جديد، كانت تُمثل سيدة في مخدع، تقف أمام المدخنة، وهي تقرأ رسالة. بدا لي اللون سخيف جدا، غلا أنني شعرت بتعاطف كبير مع الفنان.

- أين هو؟ سألت بيرت فجأة، وهي تبحث من حولها. يفقد أثرنا كل عشر خطوات.

كانت تتحدث عن زوجها.

- إنه هناك غوشورو، أجاب فيليكس بهدوء، الذي كان ينظر على الجميع. إنه يشاهد ذاك المسيح الكبير المصنوع من السكر، المسمّر على صليب من خبز مليء بالتوابل.

في واقع الأمر، كان الزوج – الهادئ وغير المهتم بأي شيء – يقوم بجولة على الصالات لحسابة الخاص، يداه وراء ظهره. حين لمحنا، جاء ليصافحنا؛ وقال لنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بنبرته المرحة:

- هل لاحظتم؟ هناك مسيح ذو مشاعر دينية مميزة حقا.

كانت السيدتان قد بدأتا بالمسير مجددا. لقنا بهما مع غوشورو. سمح لنا وجود الزوج بمرافقتهما. تحدثنا عن السيد نيجون: سيأتي حتما إن خرج باكرا من اجتماع إحدى اللجان، إذ يريد أن يعرف رأي الحكومة، حول قضية مهمة. كان غوشورو قد استولى عليَ وأغرقني بصداقته. أزعجني هذا الأمر، إذ يجب أن أجيب على أسئلته. ابتسم فيليكس، وهو ينكزني برفق بمرفقه؛ لكني لم أفهم ما يريد. استفاد من أني أشغل الرجل الضخم كي يمشي في الأمام مع هاتين السيدتين. كنت ألتقط بعض أطراف الحديث.

- إذًا، أتذهبين هذا المساء إلى صالة المنوعات؟

- أجل، حجزت المقاعد الأمامية في مقصورة الصالة الأرضية. يقال إن هذه المسرحية مضحكة... سأصطحبك يا لويز. آه! أريد ذلك!

ولاحقا:

- لقد انتهى الموسم. افتتاح هذا المعرض هو آخر الاحتفالات الباريسية.

- لقد نسيت سباق الخيل.

- فعلاً! أرغب في الذهاب لمشاهدة سباق الخيل في ميزون لافيت. قيل لي إن الأمر لذيذ هناك.

في أثناء ذلك، كان غوشورو يحدثني عن لو بوكيه، عقار رائع، قال، وأضاف إن أبي قد ضاعف قيمتها. شعرت بأنه متملق كبير. لم أكن أستمع إليه مطلقا، بل أشعر بغليان في أعماق كينونتي، كلما توقفنا فجأة أمام لوحة، لتلامسني لويز بذيل ثوبها الطويل. عنقها الأبيض، تحت شعرها الأسود، بدا رهيف وكأنه عنق طفل. وبرغم ذلك، كانت تحتفظ بشكلها الصبياني، ما كان يثير حفيظتي قليلا. تُلقى عليها التحايا بكثرة، فتضحك، وتُشغل الناس بلمعان بهجتها واهتزازات تنورتها الحيية.

استدارت لمرتين أو ثلاث لكي تنظر إليَ بثبات. كنت أسير في حلم، ولا أعرف

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحديد كم ساعة لحقت بها بهذه الطريقة، بعد أن شوشتني أحاديث غوشورو، وبعد أن أعمتني أمكنة اللوحات المتناثرة يمينا وشمالا. كنت أعي فقط، انه في نهاية الرحلة، كنّا نلوك الغبار في الصالات، وبأنني كنت أشعر بتعب رهيب، بينما كانت المرأتان تحافظان على رباطة جأشهما وهما تبتسمان.

عند الساعة السادسة، اصطحبني فيليكس لتناول العشاء. وعند التحلية:

- أشكرك، قال لي فجأة.

- على ما؟ سألته متفاجئا.

- على رهافتك في عدم التغزل بالسيدة غوشورو. يبدو أنك تفضل السمراوات؟

لم أستطع منع نفسي من الاحمرار خجلا. أسرع ليضيف:

- لا أريد أن أستمع إلى اعترافاتك. بل على العكس، لقد لاحظت أنني امتنعت عن التدخل. أظن أن علينا أن نتعلم وحدنا أمور الحياة.

لم يكن يضحك، بل كان جادا ومحبا.

- إذًا، هل تعتقد أن بإمكانها أن تحبني؟ قلت له، من دون أن أجرؤ على تسمية لويز.

- من جهتي، أجابني، أنا لا أعرف شيئا مطلقا. افعل ما تراه مناسبا. سترى جيدا كيف ستسير الأمور.

اعتبرت أن ما قاله بمثابة تشجيع. استعاد فيليكس نبرته الساخرة؛ وبهدوء، وعلى سبيل المزاح اعتبر أن غوشورو يرغب في رؤيتي أخرَ صريعا في حبّ زوجته.

- آه! إنك لا تعرف هذا الرجل، لم تفهم لمَ كان يتعلق برقبتك بهذه القوة. تأثير عمه ينخفض في منطقتك، وإن اضطر لأن يواجه المقترعين، فسيكون أسهل بالنسبة إليه الاعتماد على والدك... يا سيدة مريم! أشعر بالخوف، أتفهم، من هذه اللحظة يمكن أن تكون مفيدا جدا بالنسبة إليه؛ بينما أنا، فقد استهلكني اليوم.

- إنه أمر مرَوع! صرخت قائلا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لماذا مروّع؟ أعاد قولي بنبرة هادئة، لدرجة لم أعرف معها إن كان يسخر أم لا. حين ترغب المرأة في الحصول على أصدقاء، فليكن هؤلاء الأصدقاء مفيدين بالحياة الزوجية.

بعد مغادرتنا الطاولة، تحدث فيليكس قائلا إنه سيذهب إلى مسرح المنوعات. كنت قد شاهدت المسرحية قبل يومين؛ لكنني كذبت لأبدي رغبتي العارمة في مشاهدتها. أي سهرة ساحرة! كانت السيدتان تجلسان بالضبط بالقرب من أمكنتنا. وحين أدير رأسي، كان بإمكاني أن أتابع على وجه لويز المتعة التي تشعر بها من جراء نكات الممثلين. قبل يومين، وجدت هذه النكات بلهاء. لكنني لم أعد أشعر معها بالإحراج، بل على العكس من ذلك، بدأت اتذوق فيها متعة، لأنها تبدو لي بأنها تضع نوعا من التواطؤ الغرامي بين لويز وبيني. كانت المسرحية رشيقة، وكانت تضحك من الكلمات المحفوفة بالمخاطر بشكل خاص. كان يكفيها أن تكون في مقصورة صالة المسرح الأرضية حتى يصبح الفسوق مسموحا. حين تلتقي أعيننا وسط انفجار ضحكة، لم تكن تخفض رأسها. ما من شيء بدا لي أكثر رهافة من هذا الانحراف، فقلت لنفسي إن ثلاث ساعات مضت بهذا الشكل، في هذا المجتمع البهيج، لا بدّ وأن تدفع أعمالي إلى الأمام. ومع ذلك، كان الصالة بأسرها تشعر بالتسلية، العديد من النساء، في الطابق العلوي، لم تكن حتى يحركن مراوحهن اليدوية.

خلالَ الاستراحة بين الفصلين، قمنا لنسلم على السيدتين. كان غوشورو قد خرج لتوه، فتمكنا من الجلوس. كانت المقصورة معتمة، أحسست بـ لويز إلى جانبي. تطايرت جونلتها، بعد حركة قامت بها، لتغطي ركبتي. اعتبرت أن الإحساس بهذه الملامسة الأولى، بمثابة أمنية أولى، تصل واحدنا بالآخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

III

ها قد مضت عشرة أيام. اختفى فيليكس، ولا أجد أي حجة يمكنها أن تقربني من السيدة نيجون. اكتفيت، لكي أهتم بها، بشراء خمس أو ست من الصحف الكبيرة، حيث يمكنني فيها، أن أقرأ اسم زوجها. كان له مداخلة في مجلس النواب، خلال إحدى المناقشات الكبيرة الخطرة، وقد ألقى كلمة وجدت أصداء كبيرة. لو أن خطابه هذا، جاء في عصر آخر، لبدا لي مملا؛ لكنه يعنيني اليوم، إذ أرى جدائل لويز وعنقها الأبيض من خلف كلماته المشوشة. حتى أنني تصادمت مع رجل بالكاد أعرفه، وكان بيننا نقاش عنيف بخصوص السيد نيجون، الذي كنت أدافع عن عجزه. أخرجتني المقالات الخبيثة، التي هاجمته في الصحف، عن طوري. بدون شك، هذا رجل أحمق؛ بيد أن ذلك يثبت أكثر ذكاء زوجته، إن كانت، مثلما يُروي، الساحرة التي كانت وراء ثروته.

خلال الأيام العشرة هذه من نفاذ الصبر ومن الركض بدون طائل، ذهبت إلى عند عمتي خمس أو ست مرّات، على أمل دائم بأي صدفة سعيدة، بلقاء ما غير متوقع. في حين أنني، خلال زيارتي الأخيرة، عبرت عن سخطي للكونتسية بشدة، لدرجة أنني لن أجرؤ على العودة إلى منزلها في فترة قريبة قادمة. كانت مصرّة على أن تحصل على وظيفة في السلك الدبلوماسي، بمعية السيد نيجون؛ وكانت دهشتها كبيرة، حين رفضت ذلك، مبديا في كلامي آرائي السياسية. أسوأ ما في الأمر هو أنني قبلت ذلك، في المرة الأولى، حين لم أكن قد أحببت لويز بعد ولم يكن يزعجني وقتها أن يقدم لي زوجها خدمة تجلب الفائدة. بدورها، عمتي، التي لم تتمكن من فهم فرط حساسيتي، شعرت بالدهشة ممّا أسمته نزوة طفولية. هل أن «الشرعيين»، أصحاب الضمير مثلي، لا يمثلون الدولة في الخارج؟ على العكس من ذلك، الدبلوماسية هي ملجأ «الشرعيين»؛ إنهم يملأون السفارات، إنهم يقدمون لقضية الحق خدمة جليلة، حين يتسلمون زمام المناصب العالية التي كان يرغب الجمهوريون في تبوأها. كنت أشعر بتشوش كبير لكي أتمكن من تقديم أعذار شرعية، لذا تقوقعت في طهرانيتي السخيفة، وانتهى الأمر بعمتي بأن وسمتني بالمجنون، بالأحرى كانت غاضبة جدا، لدرجة أنها تحدثت بالأمر مع السيد نيجون. لا أهمية لذلك! لن تصدق لويز بأنني أغريتها لكي أحصل على مركز في الوزارة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا شك ستضحكون عليَ، فيما لو أخبرتكم عن تلك الحالات الغريبة التي مررت بها منذ عشرة أيام. بداية، كنت مقتنعا بأن لويز قد انتبهت من اضطرابي العميق حين رمت بكشكش جونلتها على ركبتي؛ وتوصلت إلى نتيجة أنها لا تنفر مني، لأنها لم تتراجع عن حركتها رأسا. وجدت في ذلك إغراء حسيًا، يذهب إلى أبعد من الغنج المسموح به. أكتب هنا ملاحظات صادقة لن أخفي فيها أي شيء. العديد من الرجال، إن قالوا كلَ شيء، سيعترفون بأن الأمكنة تتبدل، إلا أن المرأة تبقى هي نفسها. في الحب، تهب المرأة نفسها، أو تسمح بأن يمتلكوها. أتحدث عن المتزوجات، عن الراقيات اللواتي لديهن مصالح يجب المحافظة عليها. والرجال الذي يرغبون فيهن يشعرون سريعا ما إن كنَ سيهبن أنفسهن برغم ثياب التربية اللائقة وبرغم الرفاهية الفخمة. أروي ذلك كلّه لكي أقول إنني، وفي أنانيتي كعاشق، كنت أجد أن علاقة محتملة بين لوزي وبيني هلي علاقة طبيعية. طرف هذه التنورة على ركبتي كان ببساطة تعبيرا عن صراحة وشجاعة ساحرتين.

بعد عدة ساعات من هذا التفكير، فقط، أبدا بالإحساس بالشك، وبتقديم تحليلات معاكسة. الفتاة العزباء وحدها من يمكنها أن تهب نفسها بهذه الطريقة، إنني أحمق لأظنّ بأن امرأة سترمي نفسها عليَ حتى بطريقة طائشة. السيدة نيجون لا تفكر فيَ. ربما كان لديها عشاق، ولكن علاقاتها هذه كانت محسوبة بالطبع مسبقا وهي أكثر تعقيدا. بدون شك، هناك مسافة واسعة جدا بين المرأة التي حلمت فيها، المرأة المصنوعة من رغبة كليّة، المتقدمة صوب متعتها، وبين المرأة الماهرة اللبقة، الباريسية المحصنة باللباس، التي كانت عليها (السيدة نيجون).

إذًا، لقد طارت مني بشكل كامل، لن أراها مجددا مطلقا، وحتى أنني لم أعد أعرف إن كان ذلك حقيقيا، بقائي خمس دقائق، تحت ظلّ غرفة الفنانين، لأحس بأنها تحيا على جسدي. وكنت شقيا جدا، لدرجة أنني حلمت، للحظة، بالعودة إلى «لو بوكيه» لكي اسجن نفسي داخله.

أمس الأول، نبتت في ذهني فكرة، لدرجة أنني استغربت كيف لم تطرأ على بالي منذ الوهلة الأولى. فكرة أن أذهب وأشاهد جلسة في البرلمان؛ ربما يتحدث فيها السيد ميجون، ربما تكون زوجته حاضرة هناك. لكنه مكتوب لي ألا ألتقي أبدا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهذا الرجل العفريت. كان عليه أن يتحدث، لكنه لم يحضر: يقال إنه رأى نفسه أسير إحدى اللجان في مجلس الشيوخ. وبخلاف ذلك، وبما أنني طنت جالسا في نهاية إحدى المنصات، شعرت بالتوتر، حين رأيت السيدة غوشورو جالسة في الصف الأول من المنصة المواجهة. رأتني ونظرت إلي وهي تبتسم. للآسف! لم تكن برفقة لويز. تناثر فرحي. وحين الخروج، تدبرت أمري لكي ألتقي السيدة غوشورو في أحد الممرات. تعاملت معي برفق. بالتأكيد، حدثها فيليكس عني.

- هل تغيبت عن باريس؟ سألتني.

بقيت صامتا كأبكم، وقد أثارني هذا السؤال. أنا الذي أرفرف بغضب فوق هذه المدينة!

- ذلك لأننا لم نعد نلتقي بك في أي مكان. الاستقبال الأخير، في الوزارة، كان رائعا، وقد جرى استعراض للفروسية ساحر...

وأمام خيبتي الواضحة اليائسة، بدأت بالضحك.

- هيا، إلى الغد، قالت وهي تذهب مبتعدة. سنلقاك هناك، اليس كذلك؟

أجبت بنعم، بشكل أحمق، لم أجرؤ على المخاطرة وطرح سؤال، مخافة أن أسمعها تضحك من جديد. التفت نحوي مجددا، ونظرت إلي نظرة لئيمة.

- تعال، همست مرة أخرى، بنبرة غير لافتة للنظر، نبرة صديقة خبأت لي بعض المفاجآت السعيدة.

اجتاحتني رغبة مجنونة في الركض خلفها، كي أسالها. بيد أنها كانت قد استدارت إلى ممرَ آخر، ولعنت تقديري الغبي لذاتي، الذي يمنعني من الاعتراف بجهلي. بالتأكيد، أنا على استعداد للذهاب على هناك، لكن أين هو هذا الـــ هناك؟ ضبابية هذا الموعد تؤجج روحي بالعذاب، وتشعرني، زيادة عن ذلك، بالعار لعدم معرفة ما يعرفه الآخرون. في المساء، أسرعت إلى عند فيليكس، معللا الأمر، لنفسي، بأني سأحصل منه، بطريقة لبقة، المعلومة التي أنا بحاجة إليها. لم يكن فيليكس في المنزل. لذا، وأنا اشعر بالأسف، انهمكت في قراءة الصحف، مختارا منها الصحف الأكثر اجتماعية والأكثر شهرة، محاولا أن أتوقع، وسط الأخبار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنشورة عن نشاطات اليوم التالي، أي يقع هذا المكان الذي رغب في إخباري به الصوت ذو النبرة الجميلة، ليواعدني عنده. ازداد توتري مثلما ازدادت حيرتي، كانت هناك احتفالات من جميع الأنواع: معرض رسم للفنانين المعلمين القدامى، حفل بيع خيري في محفل كبير، قداس موسيقي في سانت – كلوتيلد، التمرين الأخير لعرض مسرحي، حفلان موسيقيان وتوزيع ثياب، من دون أن ننسى سوق المشتريات في كل مكان تقريبا. كيف يمكن لجاهل، لشخص بروفانسي يعي أنه أرعن وطائش، أن يتمكن من تدبير أمره وسط هذا الارتباك؟ كنت أفهم جيدا أن النبرة الأسمى كانت في الذهاب إلى أحد هذه الأمكنة؛ لكن أي واحد يا إلهي الكبير؟ في النهاية، وبرغم المخاطرة في أن أصاب باكتئاب طيلة النهار وفي أن يفترسني نفاذ الصبر، فيما لو أخطأت، تجرأت على اختيار إحدى تلك النشاطات. تذكرت – أعتقد ذلك – بأن هاتين السيدتين تحدثتا عن سباق ميزون – لافيت، وكما لو أن وحيا ما دفعني، وجدت الحلَ في أن أذهب إلى مضمار ميزون – لافيت.

ما ان اتخذت قراري هذا، حتى شعرت ببعض السكينة.

يا لها من زاوية أنيقة، هذه الضاحية من باريس! لم أكن على دراية أين تقع ميزون – لافيت، التي سحرتني بمنازلها البهيجة، المبنية على حدٍ يقارب نهر السين. إننا في الأيام الأولى من شهر أيار، أشجار التفاح بيضاء بالكامل حتى لتبدو وكأنها باقات كبيرة، وسط اخضرار شجر الحور والدردار، الحنون.

وجدت نفسي، لحظتها، في غير مكاني، ومن ثم تائها بين الجدران وأسيجة النباتات المزهرة، غير راغب في سؤال أحد لكي يدلني على طريقي. شعرت بالفرح حين رأيت أناسا كثر يصعدون إلى القطار عينه؛ لكن هاتين السيدتين لم تكونا هنا، ولكثرة ما حملقت بالمارين، في ميزون لافيت، انقبض قلبي. انتهى بي الأمر بأن تهت، بعيدا عن المساكن، على طول نهر السين، حين انتابتني صدمة عاطفية، بغتة، جعلتني أتوقف بوضوح، بالقرب من كتلة أشواك. على بُعد خمسين خطوة، كانت مجموعة من الأشخاص تتقدم باتجاهي وببطء، تعرفت فيها على لويز وبيرت؛ غوشورو وفيليكس، المتلازمان دائما، يتبعانهما من على بعد خطوات قليلة. هذا ما خمنته. ملأني الأمر بالكبرياء. إلا أن اضطرابي كان كبيرا، لدرجة أنني ارتكبت

هفوة صبيانية حقيقية. اختبأت خلف الكتلة الشوكية، بعد أن سيطر عليّ خجل ما، مخافة أن أبدو سخيفا. حين مرّت لويز، حفّ طرف ثوبها بالأجمة. فهمت، رأسا، حماقة حركتي الأولى. أسرعت لأقطع الطريق عبر الحقول؛ وبما أن المتنزهين كانوا يصلون إلى منحدر في الطريق، خرجت طالعا وأنا أتنشق الهواء بأقصى ما يمكنني من طبيعية، كما لو أنني شخص يعتقد أن لا أحد معه تاركا نفسه لأحلام اليقظة في الهواء الطلق.

- أنظروا! هذا أنت! صرخ غوشورو.

ألقيت التحية، مظهرا ردة فعل متفاجئة. صدرت منا بعض التعجبات، تبادلنا المصافحة. كان فيليكس يضحك بهيأته المتفردة؛ بينما وجهت لي بيرت غمزة بعينيها، ما أنشأ نوعا من التواطؤ بيننا نحن الاثنين. عدنا للسير، وقد وجدت نفسي معها، بعد لحظات، في الخلف.

- لقد جئت إذًا؟ قالت لي بابتهاج، بصوت هامس.

وبدون أن تترك لي وقتا للإجابة، مازحتني، مضيفة بالقول بأني لا زلت أشعر بالسعادة القصوى بكوني ما زلت طفلا بعد. شعرت بأنني وجدت حليفا، تراءى لي أنها شعرت بفرح شخصي كبير، بأن تضع صديقتها بين ذراعيّ. استدار فيليكس، ليسأل:

- ما السبب الذي يدفعكما إلى الضحك؟

- إنه السيد فوجولاد من يروي لي رحلته مع عائلة إنكليزية، أجابت بهدوء.

أعاد غوشورو الإمساك بذراع فيليكس ليجره، كما لو أنه لا يريد أن يزعج اختلائي مع زوجته. بقيت وحدي بين لويز وبيرت، أمضيت ساعة رائعة، على هذه الطريق المظلّلة، التي تلاحق نهر السين. كانت لويز ترتدي ثوبا حريريا فاتح اللون، ومظلتها ذات البطانة الزهرية، تضيء وجهها بنور رهيف وساخن، بدون أثر لأي ظلّ. يعطيها الريف حيوية أكبر، تتكلم بصوت أعلى، تنظر إليّ مباشرة، تجيب بيرت التي كانت تطرح عليها أسئلة جريئة، بإلحاح صدمني لاحقا.

- لتعطي ذراعك للسيدة نيجون، قالت لي بيرت في النهاية. لست لبقا مع النساء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألا ترى أنها متعبة.

مددت ذراعي لـ لويز التي اتكأت عليه مباشرة. لحقت بيرت بزوجها وفيليكس، فبقينا وحدنا، خلفهم بما يقارب الأربعين خطوة. كان الطريق يمتد على طول ضفة النهر، فمشينا الهوينا. في السفل، كانت مياه السين تنساب، بين المراعي الممتدّة مثل سجاد مخملي أخضر اللون. ثمة هنا جزيرة نحيفة وطويلة، يقطعها الجسران، حيث تمر عليهما القطارات بدوي صاعق بعيد. وفي الجهة الأخرى من المياه، سهل واسع، مزروعات يصل امتدادها إلى جبل فاليريان، حيث نلحظ، على حافة السماء، الأبنية الرمادية، في تفتت غبار الشمس. وما كان يجعلني حنونا لغاية الدمع، كانت رائحة الربيع المنتشرة حولنا بشكل خاص، العالقة بها الأعشاب، إلى جانبي الطريق.

- هل ستعود قريبا إلى بوكيه؟ سألتني لويز.

تملكتني الحماقة في أن أقول لا، من دون أن أنتبه إلى أنها كانت ستضيف التالي:

- آه! هذا محزن، سنرحل الأسبوع المقبل إلى «ليه مورو»، إلى ذاك العقار الذي يملكه زوجي على بعد فرسخين من مكانكم، أعتقد، وكان يأمل في دعوتكم لكي نلتقي.

تأتأتُ، قلت ربما سيتصل بي والدي أسرع مما أعتقد. تراءى لي أنني شعرت بذراعها يتكئ أكثر على ذراعي. أكان هذا موعدا تحدده لي؟ وفي لباقة الفكرة التي كونتها عن هذه الباريسية، المتحررة جدا والمرهفة جدا، بنيت للتو رواية، علاقة في الريف، شهر حبّ تحت الأشجار الكبيرة. أجل، هذا هو الأمر، بدون شك تجدني أمتلك العديد من فضائل النبيل الريفي، تريد أن تحبني هناك، ضمن إطاري.

- أريد أن أؤنبك، أكملت حديثها فجأة، متخذة هيئة حنونة، أمومية.

- ولِمَ ذلك؟ همهمت بالإجابة.

- حسنٌ، كلمتني عمتك عنك. يبدو أنك لا تريد قبول أي شيء من أيدينا. هذا أمر جارح فعلا. لِمَ ترفض ذلك، قل لي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعتراني احمرار الخجل مرّة ثانية. كنت على أهبّة المخاطرة بالإعلان، بأن أصرخ: «أرفض ذلك، لأنني أحبك». بيد أن حركة صدرت عنها، تشير إلى أنها كما لو فهمت ما أريد قوله وتريد من أن اصمت. لتضيف بعد ذلك، وهي تضحك:

- إن كنت تشعر بالاعتداد بالنفس، وإن كنت ترغب في تقديم خدمة بخدمة، نقبل بكل رضا حمايتك، هناك. أنت تعرف أنه يجب تعيين مستشار عام. يريد زوجي أن يتقدم للمنصب، لكنه يخشى أن يُهزم، ولن يكون الأمر مريحا نظرا لوضعه... هل ترغب في مساعدتنا؟

لا يمكن للمرء أن يكون ألطف من ذلك. بدت لي مسالة الانتخابات هذه بمثابة حجّة من إمرأة روحانية، لكي نلتقي بين الحقول.

- من دون شك سأساعدكم! أجبتها ببهجة.

- إن قمت بتسمية زوجي، فمن الطبيعي أن يساعدك زوجي بدوره.

- أبرمت الاتفاقية.

- أجل الاتفاقية أبرمت.

مدّت لي براحة كفها، فربث عليها. تمازحنا نحن الاثنين. تراءى لي هذا أمرا مدهشا، في الحقيقة. توقفت الأشجار عن الاهتزاز، غربت الشمس بشكل مستقيم في أعلى الضفة، مشينا في درجة الحرارة العالية، صامتين نحن الاثنين. لكنّ هذا الأحمق غوشورو جاء ليعكر علينا هذا الصمت المرتعش، تحت سماء مشتعلة. لقد سمعنا نتحدث عن المستشار العام، ولم يعد يريد إفلاتي، فأخبرني قصة عمه، ومناورته لكي يلتقي بوالدي. وصلنا أخيرا إلى المضمار. وجدوا السباق رائعا. وأنا، طيلة الوقت، خلف لويز، أنظر إلى عنقها الرهيف. وكم كانت طريق العودة رائعة، تحت شتوة فجائية! خضرة الريف، تحت المطر، ازدادت طراوتها، فاحت رائحة الأوراق والأرض الطيبة، رائحة حب. أغلقت لويز عينيها نصف إغماضة من التعب وكما لو أنّ الربيع قد اجتاحتها.

- تذكر اتفاقنا جيدا، قالت لي في المحطة، وهي تصعد إلى عربتها التي كانت تنتظرها. اللقاء في مورو، بعد خمسة عشرة يوما، أليس كذلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شددت على يدها التي مدتها لي، وخفت يكون تصرفي هذا على درجة ما من الفظاظة، غذ للمرة الأولى ألمح عبوسا في وجهها، وقد ارتسمت ثنيتان من الاستياء على شفتيها. لكن بيرت تبدو دائما وكأنها تدفعني إلى أن أكون أكثر جرأة، بينما فيليكس لا يزال يحتفظ بضحكته الغمضة، في حين ربت غوشورو على كتفي وهو يصرخ:

- نلتقي في مورو، بعد خمسة عشر يوما، سيد فوجولاد... سنكون هناك جميعا.

ليأخذه الشيطان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

IV

عدت من مورو، وروحي طافحة بالأفكار المتناقضة، لدرجة أنني بحاجة لأن أروي عن ذلك النهار الذي أمضيته بالقرب من لويز، لأتمكن من تكوين رأي واضح.

على الرغم من أن «ليه مورو» لا تبعد إلا فرسخين من بوكيه، إلا انني لم أكن أعرف هذه الزاوية من بلادنا. فعمليات الصيد التي نقوم بها، تدور من جهة غومرفيل، وبما أننا نقوم باستدارة طويلة لكي نجتاز بحيرة بياج الصغيرة، لم أكن قد مررت في هذه الناحية كثيرا في حياتي. ومع ذلك، كانت الضفة مدهشة، بطريقها المتصاعد التي تحدها أشجار الجوز الكبيرة. من ثم، على السفح، نعود لنهبط، حيث تقف «ليه مورور عند مدخل وادٍ، حيث سرعان ما تتقلص المنحدرات في ممرّ ضيق. كان مكان السكن، بيتا يعود إلى القرن السابع عشر، على ذي غير أهمية؛ لكنّ المنتزه ساحر، بأراضيه العشبية الواسعة وبطرف الغابة التي تحدّه عند النهاية لكنه لا ينفصل عنها، لدرجة أن الممرات بذاتها قد اجتاحتها الأغصان.

حين وصلت على فرسي، استقبلني كلبان كبيران بنباحهما وبقفزاتهما المتتابعة. عند أقسى الطريق المشجر، لمحت لطخة بيضاء. كانت لويز، بثوب فاتح اللون، وتعتمر قبعة من قش. لم تأت للقائي، بل بقيت ثابتة مكانها مبتسمة، على الشرفة الأمامية الواسعة التي تقود على المدخل. كانت الساعة قد تخطت التاسعة بقليل.

- آه! كم أنت رائع! قالت لي بصوت مرتفع. على الأقل أنت شخص صباحي! كما ترى، أنا الوحيدة المستيقظة في القصر.

هنأتها على هذه الشجاعة الباريسية الجميلة. لكنها أضافت وهي تضحك:

- صحيح أنه لم يمرّ عليّ هنا إلا خمسة أيام. استيقظ مع الدجاج، في الأيام الأولى. فقط، وبدءا من الأسبوع الثاني، أبدأ باستعادة عاداتي الكسولة تدريجيا، وفي نهاية الأمر، سأنزل عند الساعة العاشرة، كما في باريس... في أي حال، هذا الصباح، لا أزال هذه القروية.

لم يسبق لي أن شاهدتها فاتنة إلى هذا الحدّ. وفي استعجالها لمغادرة غرفتها، عقدت شعرها بدون عناية، ولفت عليها أول رداء للحمام وقع تحت أيديها؛ بنضارتها كلّها، وبعينيها الرطبتين من النعاس، تعود لتبدو كطفلة. تطير بعض

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخصلات على عنقها. لمحت ذراعيها العارتين إلى غاية مرفقيها حين ينحسر كميّها.

- أتدري إلى أين أنا ذاهبة؟ أكملت كلامها. حسنٌ! أنا ذاهبة لكي أرى، فوق ذلك المهد هناك، ستارة من الدود الأرجواني (الفولوبيليس) تبدو ساحرة، كما يتراءى، حين لا تكون الشمس قد أغلقت الزهور بعد. هذا ما قاله لي البستاني؛ وبما أنني لم أشاهد أرجوانياتي أمس، لا أريد أن أفوت ذلك عليَ اليوم... سترافقني أليس كذلك؟

شعرت برغبة كبيرة في أن أمدَ لها ذراعي، لكنني فهمت أن الأمر سيبدو سخيفا. ركضت وكأنها تلميذة داخلية وقد هربت. ما إن وصلت إلى المهد، حتى أطلقت صرخة إعجاب. شرشف كامل من الدود الأرجواني تدلق من الأعلى مطرا من الأجراس المتلألئة باللون الزهري حيث أن ملمسها الحسّاس يتدرج من اللون الزهري الفاقع إلى اللون الليلكي إلى الأزرق الشاحب. كما لو أنها لوحة من هذه الفانتازيات اليابانية، ذات الأناقة والغرابة المختارتين بعناية.

- هذه هي مكافأتنا، حين نستيقظ باكرا، قالت لويز ببهجة.

ومن ثم جلست تحت المهد، فسمحت لنفسي بالجلوس قربها، لتسحب تنورتها على الخلف كي تصنع لي مكانا. كنت مثارا، إذ خطر على بالي أن أعجَل في مسار الأشياء، باحتوائها بالكامل بين ذراعيَ وبتقبيل عنقها. شعرت حقا بأن فعلتي هذه ستكون بمثابة فجاجة ملازم ثان استولى على فضيلة خادمة. لكنني لم أجد شيئا آخر، إذ تملكني هاجس هذه الفكرة، لتتحول إلى نوع من الحاجة الجسدية. لا أعرف إن فهمت لويز ما يحدث في داخلي: لم تنهض من مكانها، فقط، بدت على محيّاها الجدَ.

- بداية، لنتحدث في أعمالنا، أترغب في ذلك؟ قالت لي.

ثمة طنين في أذني، جاهدت لكي أستمع إليها. الجو معتم قليلا وبارد قليلا، تحت المهد. تثقب الشمس أوراق الدود الأرجواني بسهام ذهبية رفيعة؛ وعلى رداء لويز الأبيض، ترتاح حشرات ذهبية.

- أين نحن من القضية الآن؟ سألتني، بنبرة شخص متواطئ.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حينذاك، رويت لها التحول المفاجئ الذي لاحظته على والدي. أبي الذي، لعشر سنوات خلت، تصرف ضد الدولة الجديد، مانعا إيّاي من خدمة الجمهورية بتاتا، إلا أنه أسمعني هذه المرة، منذ ليلة وصولي، بأن شابا في عمري، يتوجب عليه خدمة بلاده. كنت أشك في أن تكون عمتي وراء هذا الكلام. أعتقد أنهم أفلتوا النساء عليه. كانت لويز تبتسم وهي تستمع إلي. قالت لي في النهاية:

- التقيت بالسيد فوجولاد، منذ ثلاثة أيام، في قصر قريب، حيث كنت في زيارة... وقد تبادلنا الحديث.

وسرعان ما أضافت بحيوية:

- أنت تعرف أن هذه الانتخابات في الأمانة العامة ستجري نهار الأحد. ستبدأ بالحملة الانتخابية رأسا. مع والدك، سيكون نجاح زوجي مضمونا.

- هل السيد نيجون هنا؟ سالتها بعد تردد.

- أجل، لقد وصل البارحة مساء... لكنك لن تلتقي به هذا الصباح، لأنه ذهب إلى ناحية غومرفيل، ليتناول طعام الغداء عند مالك من أصدقائه، كبير النفوذ.

نهضت واقفة، وبقيت جالسا للحظة أخرى، نادما بالطبع لأنني لم أقبل لها عنقها. لن أجد مرة أخرى، مطلقا، زاوية منفردة معتمة إلى هذا الحدّ، في هذه الساعة الصباحية، بعد أن تكون خارجة لتوها من السرير، وبالكاد قد ارتدت ملابسها. لقد فات الوقت الآن؛ وشعرت فعلا بأنني سأدفعها إلى الضحك إن ما سقطت على قدميها فوق هذا التراب الرطب، لذا أجلت إعلان حبي إلى لحظة أنسب فعلا.

في أي حال، وعند طرف الممشى، لاحظت لتوي شكل غوشورو الضخم. حين رآنا نخرج من الغيضة، لويز وأنا، صدرت منه ضحكة مكبوتة. ومن ثم، مدح شجاعتنا في النهوض باكرا. فهو، بالكاد قد نزل.

- وبيرت؟ سألته لويز، هل أمضت ليلة سعيدة؟

- صدقا، لا أعرف، أجابها. لم أرها بعد حتى الآن.

وحين لاحظ دهشتي، قال شارحا إن زوجته كانت تعاني من ألم في الرأس طيلة النهار، حين جئنا إلى هنا في الصباح. اختارا غرفتين؛ هذا أفضل، وبخاصة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في القرى. وختم كلامه بالقول، بطمأنينة وبدون ضحك:

- تعشق زوجتي النوم وحدها.

كنا نجتاز شرفة البيت التي طل على الحديقة، فلم أستطع منع نفسي في التفكير بالقصص المرحة التي تُروى عن الحياة داخل القصور. أشعر بالمتعة في أن أحلم بزاوية أنيقة للرذيلة، بعشاق يسيرون حفاة على طول الممرّ بدون شمعدانات، ليلتحقوا بنساء في غرفهن السرية، تبقى أبوابها مشقوقة. شكّل هذا الأمر لذّة للباريسيات الشريرات، المنساقات للاستفادة من حريات الريف، الذي يجدد حيوية علاقاتهن بعد أن يقتربن من الانفصال. وفجأة، شاهدت ما أقنعني أن حلمي كان حقيقة واقعة، حين رأيت بيرت وصديقي فيليكس يخرجان من الدغل، ويبدو على كليهما الاسترخاء وعدم المبالاة، وكأنهما محطمان بالرغم من الليلة الطويلة التي ناما فيها.

- ألا تشعرين بالألم. سألت لويز صديقتها باضطرار.

- لا، شكرا لك، فقط، تعرفين، التغيير، يسبب لك التوتر... كما أنه، عند الصباح، كانت هنا العصافير التي أحدثت ضجة!

شددت على يد فيليكس. ولا اعرف لِمَ – بعد أن تبادلت السيدتين الابتسامة، وبينما كان غوشورو يطلق صفيره في الهواء وهو متقوس الظهر ويبدو عليه الرضا – لا أعرَف لم طرأ على بالي فكرة أن لويز لا تجهل شيئا مما جرى في منزلها. لا بدّ أنها سمعت في الليل خطوات هذا الرجل وهي تسير على طول الممر، وأصوات الأبواب وهي تفتح وتقفل ببطء شديد، كما نفحات الحبّ الخارجة من الأقبية السوداء لتتسلق على الجدران. آه! لِمَ لَم أقبّل لها عنقها، تحت المزود. بما أنها تُسامح مثل هذه الأشياء، فبالتأكيد لن تشعر بالغضب. بدأت أحسب من أي فتحة بالمنزل يمكنني الدخول إليه، حين آتي في الليل، لكي أصعد إلى غرفتها. هناك نافذة واطئة، إلى يسار مدخل الردهة، تبد لي حلا ممتازا.

تناول الغداء عند الساعة الحادية عشرة. بعد الطعام اختفي غوشورو من أجل القيلولة. أفضى إليّ بالحديث، بحذره وخشيته من عدم إعادة انتخابه، في الانتخابات المقبلة، مضيفا بأنه ينوي البقاء ثلاثة أسابيع في محيط المنطقة، وذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أجل كسب بعض الدعم. كذلك أخبرني، بأنه يريد، وبعد أن زار عمّه، تمضية عدة أيام في مورو، إذ يرغب في أن يظهر للبلدة بأسرها بأنه على أفضل حال في علاقته مع آل نيجون؛ لأن ذلك، برأيه، قد يكسبه أصواتا انتخابية. فهمت منه أيضا أنه يشعر برغبة كبيرة في أن تتم دعوته إلى منزل والدي. لكن الشقاء في أنني أبدو لا أحب الشقراوات.

أمضيت برفقة هاتين السيدتين وفيليكس بعد ظهيرة بهيجة جدا. حياة القصر هذه، هذه النعم الباريسية التي تخفق في الهواء الطلق، عند أولى شموس الصيف، هي أمور رائعة حقا. هي الصالة التي اتسعت وامتدت فوق عشب الحديقة؛ ليست صالات الشتاء حيث نبقى مسمَّرين في أمكنتنا الضيقة قليلا، وحيث النساء المرتديات فساتين مقورة من عند الصدر يلهون بمراوح اليد، وسط الثياب السوداء الواقفة على امتدا الجدران؛ إنها صالة العطلات، والنساء المرتديات ثيابا فاتحة اللون، يركضن بحرية في المماشي، والرجال بستراتهم يجرؤون على الظهور وكأنهم أطفال، متخلّين عن القواعد الاجتماعية، ثمة ألفة تطرد سأم الأحاديث مهما كان نوعها. عليّ أن أعترف أيضا، بأن أناقة هاتين السيدتين تستمر في مفاجأتي، أنا الذي كبرت في الضواحي بين الورعين. بعد تناول الطعام، وبما أننا كنا نحتسي القهوة على الشرفة، سمحت لويز لنفسها بسيجارة. تفوهت بيرت بكلمات سوقية بطبيعة الحال. ولاحقا، اختفتا، مع ضجة تنانير كبيرة، لتضحكا في البعيد، وتصرخان لبعضهما البعض، وهما مليئتان بقلة تركيز جعلني أرتجف. من الحرق أن أعترف، لكن هذه الطرق، الجديدة بالنسبة إلي، تجعلني آمل، من قبل لويز، بموعد لتمضية ليلة في القريب العاجل. كان فيليكس يدخن سيجارا بطمأنينة. كنت أفاجئه أحيانا وهو ينظر إليَ بحسه الساخر.

Telegram:@mbooks90

عند الساعة الرابعة والنصف عصرا، عبرت عن رغبتي بالذهاب. لكن سرعان ما صرخت لويز.

- لا، أبدا، لن ترحل. سأبقيك على العشاء... سيعود زوجي بالطبع. ستلتقي به أخيرا. في أي حال، يجب أن أعرفك عليه.

شرحت لها بأن والدي ينتظرني. هناك، في لوبوكيه، عشاء أجدني مضطر للمشاركة فيه. وأضفت وأنا أضحك:

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه عشاء انتخابي، عليّ أن أعمل من أجلكم.

- أوه! إذًا، قالت، أسرع بالرحيل... وكما تعرف جيدا، إن نجحت، تعال واستلم مكافأتك.

بدا لي أنها احمرت خجلا وهي تقول ذلك. هل قصدت فقط الحديث عن المنصب الدبلوماسي الذي يجبرني والدي على قبوله؟ ظننت أنني أستطع أن اعطي معنى أكثر حنانا لعباراتها هذه، من دون شك، اتخذت شكلا متفاخرا، لأنني رأيت للمرة الثانية كيف تصبح قاسية الوجه، مع هذه الثنية في الشفتين التي تعطيها، بترفع، تعبيرا عن عدم الرضا.

بيد أنني لم أجد الوقت للتفكير بهذه التحول المفاجئ في تعابير وجهها. بما أنني كنت على أهبة الرحيل، توقفت سيارة صغيرة أمام الشرفة الأمامية. ظننت ان زوجها قد عاد. لكن، لم يكن هناك في السيارة، سوى طفلين، فتاة صغيرة في الخامسة من العمر، وصبي في الرابعة، ترافقهما إحدى المضيفات. فردا أذرعتهما، ضحكا؛ وما إن تمكنا من القفز على الأرض، حتى ركضا ورميا بنفسيهما في حضن لويز. قبلتهما على رأسيهما.

- لمن هذين الطفلين الجميلين؟ سالت.

- إنهما لي! أجابتني، بصوت متفاجئ.

لها! لن أعرف كيف أعبر عن هذه الضربة التي جلبتها لي هذه الكلمة. تراءى لي، فجأة، بعد أن غاب عني ذلك، بأن هذين الكائنين الصغيرين، يحفران بايديهما الضعيفة، هوّة لا يمكن اجتيازها، بينها وبيني. كيف! لديها طفلان ولا أعرف عنهما شيئا! لم أستطع تمالك هذه الصرخة القاسية:

- لديك أطفال!

- بدون شك، قالت بهدوء. لقد ذهبا لرؤية عرابتهما، هذا الصباح، على بعد فرسخين من هنا... اسمح لي بأن اقدمهما لك: السيد لوسيان، والآنسة مارغريت.

ابتسم لي الصغيران. لا بد أن شكلي شكل شخص أخرق. لا، لن أستطيع التعود على فكرة أنها أم. ذلك يزعج أفكاري كلها. انصرفت وفي رأسي طنين، ففي هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الساعة لا أعرف بما أفكر. أعود لأرى لويز تحت مزود الدود الأرجواني، أراها وهي تقبل شعر كل من لوسيان ومارغريت. بالطبع، هاته الباريسيات يبدون معقدات جدا بالنسبة على شخص ريفي من نوعي. عليّ أن أنام. سأعمل على أن افهم غدا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

V

هاكم هنا حلّ المغامرة هذه. آه! أي درس تعلمته! لكن لنحاول أن نقص الأشياء بدم بارد.

نهار الأحد، تمّت تسمية السيد نيجون أمينا عاما. بعد فرز الأصوات، بات من الواضح، أنه لولا دعمنا، لخسر المرشح. أسر إليّ والدي، الذي التقى من جهته، بالسيد نيجون، بأن رجلا ضعيفا إلى هذه الدرجة، لا يُخشى منه أي شيء؛ كان يجب بالأحرى أن نهزم المرشح الراديكالي. عند المساء، بعد العشاء، استيقظ الرجل العجوز، في منزل والدي، واكتفى بأن قال لي:

- كل هذا الذي يجري ليس أمرا نظيفا. بيد أن الجميع رددوا على مسامعي بأنني أعمل لصالحك... في نهاية الأمر، قم بما عليك أن تقوم به. بالنسبة إليّ، ليس أمامي سوى الذهاب، لأنني لا أفهم شيئا».

ترددت نهاري الاثنين والثلاثاء، في أن أذهب إلى مورو. تراءى لي أني لو فعلت، لكانت فجاجة مني، في أن أذهب بهذه السرعة للحصول على الشكر. ومع ذلك، لم يعد الطفلان يزعجاني ابدا. حلّلت الأمر برأسي، مبرهنا على أن لويز كانت أما أيضا بأقل قدر ممكن. ألا نقول نحن، في ريفنا، إن الباريسيات لا يضحين بأي متعة لأولادهن وبأنهن يتركهن مع الخدم من أجل أن يكنّ حرات؟ نهار أمس، الأربعاء، اختفت من عندي جميع مشاعر التردد. افترسني عدم الصبر. ذهبت وكأنني في حرب، من الامنة صباحا.

كان مشروعي في أن أصل إلى مورو كما وصلت المرة الأولى، في الصباح، وفي أن أجد لويز بمفردها، عند استيقاظها من النوم. لكن، بعد ترجلي من على فرسي، جاء أحد الخدام ليقول لي إن السيدة لم تخرج بعد من غرفتها، من دون أن يستسمحني بالذهاب إلى تنبهها لتواجدي هنا. أجبته بأنني سأنتظر.

في الواقع الأمر، انتظرتها لمدة ساعتين كاملتين. لم أهد أذكر كم مرة قمت بالدوران على أرضية الحديقة. من وقت لآخر، كنت أرفع عينيّ نحو نوافذ الطابق الأول؛ بيد أن الستائر بقيت مغلقة بشكل لا تفسير له. شعرت بالتعب والتوتر من هذه النزهة التي طالت، وانتهى بي الأمر بأن أذهب واجلس تحت مزود الدود

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرجواني. في هذا الصباح، كانت الطقس غائما، والشمس لا ينزلق غبارها الذهبي مطلقا بين الأوراق. وكأن الليل لا يزال حاضرا بين هذه الأعشاب المخضوضرة. حاولت التفكير بالأمر، قلت لنفسي بأن عليّ أن ألعب كل شيء من أجل كلّ شيء. ثمة اقتناع تولد لديّ، إن ترددت مرة أخرى بعد، فلن تكون لويز لي إلى الأبد. بدأت تشجيع نفسي، حاولت أن أستعيد تلك الأشياء التي جعلتني أحكم عليها بأنها مجاملة وسهلة. كانت خطتي بسيطة، وكنت أحاول إنضاجها: ما أن أجد نفسي بمفردي معها، حتى أمسك بيديها، سأتظاهر بأنني متوتر، لكيلا أروعها في البداية؛ من ثم، اقبّل لها عنقها، وستجري الأمور الباقية بمفردها. للمرة العاشرة، كنت أحاول تحسين خطتي للوصول إلى الكمال، حين ظهرت لويز فجأة.

- أين كنت مختبئا؟ قالت لي ببهجة، وهي تحاول أن تبحث عني في العتمة. آه! ها أنت هنا! منذ عشر دقائق وأنا أركض خلفك بحثا عنك... أستمحيك عذرا لأنني جعلتك تنتظر.

أجبتها، وأنا اشعر بضيق في الحلق، بأن الانتظار لا يدفع إلى السأم حين يكون المرء منتظرا قدومها.

- لقد سبق وأن حذرتك، أكلمت حديثها من دون أن يبدو عليها ان أعارت أدنى التفاتة لتفاهتي، أنا لست قروية إلا في الأسبوع الأول. الآن، ها أنا قد عدت باريسية، ولا أستطيع مغادرة سريري.

بقيت واقفة عند مدخل المزود، كما لو أنها لا ترغب في المخاطرة بين سواد الأوراق.

- حسنا جدا! ألا تريد أن تأتي؟ أنهت كلامها بطرح هذا السؤال عليّ. لدينا ما نتحدث به.

- أعتقد اننا على خير ما يرام هنا، قلت لها، بصوت مرتجف. نستطيع أن نتحدث على هذا المقعد.

أبانت لثانية ترددها من جديد. من ثم، قالت بشجاعة:

- كما تريد. كم أن المكان معتم هنا! هذا صحيح، ليس للكلمات أي لون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلست بالقرب مني. شعرت بأنني سأغيب عن الوعي. لقد حانت الساعة إذًا! دقيقة بعد، وسأمسك بيديها. لكنها، في هذه الأثناء، بقيت تشعر بالراحة، فاستمرت بالحديث بصوت واضح، لم تشبه أي عاطفة.

- لن أشكرك أبدا بجمل مصنوعة جاهزة. لقد وضعت هنا كتفك على كتفنا وساعدتنا، ولولاك لكنا بقينا على الأرض...

لم أكن في حالة تسمح لي بمقاطعتها. كنت ارتجف، وأعزي نفسي بأن أمتلك الجرأة.

- في أي حال، والكلام بيننا، الكلمات عديمة النفع، قالت وهي تكمل حديثها. مثلما تعرف، لقد أبرمنا اتفاقا فيما بيننا...

كانت تضحك وهي تتلفظ بهذه الجملة. دفعتني هذه الجملة إلى أن أتخذ قراري فجأة. أمسكت بيديها، ولم تسحبهما من يديّ. شعرت بهما صغيرتين جدا، ودافئتين جدا، بين يديّ. تركتهما بين يديّ بودّ، بألفة، بينما كانت تردد بالقول:

- أجل، أليس كذلك؟ إنه دوري الآن في تنفيذ هذا الاتفاق.

عندئذ، تجرأت في تعنيفها، سحبت يديها لكي اضعهما على شفتيّ. كان الظلام قد ازداد، لا بدّ أن غيمة مرّت من فوق رأسينا؛ أثملتني رائحة العشب في هذه الحفرة بين أوراق الشجر. لكن وقبل أن أضع شفتيّ على جلدها، انسحبت بطريقة عصبية لم أكن لأتخيلها، وقامت بدورها بالإمساك بمعصميّ بقسوة. أمسكتني بدون أن يظهر عليها الغضب، وبصوتها الهادئ، وإن كانت تشوبه، مع ذلك، مسحة من التأنيب، قالت لي:

- هيّا، لنرى، لا تقم بأعمال صبيانية. هذا ما كنت أخشاه. هل تسمح لي بأن أعطيك درسا، بينما أمسك بك هنا، في هذا الركن الصغير؟

كان في صوتها تلك القسوة المبتسمة الشبيه بصوت أمّ توبخ طفلها الصغير.

- منذ اليوم الأول، فهمت القصة جيدا. لقد أخبروك بفظائع بحقي، أليس كذلك؟ ... لقد أملت بأشياء وأشياء، وإني أعذرك، لأنك لا تعرف شيئا عن عالمنا، لقد جئت إلى باريس وأنت تملك أفكارا عنها بأنها بلد الذئاب... من ثم قلت لنفسك أيضا إنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غلطتي، إلى حدّ ما، أيضا، فيما لو كنت قد أخطأت. كان عليّ أن أوقفك من البداية، لكنت انسحبت من جراء كلمة واحدة لو قلتها لك. هذا صحيح، لم أتلفظ بهذه الكلمة، تركتك تتصرف على هواك، ربما نظرت إليّ على أنني فتاة مغناج رهيبة... هل تعرف لِمَ لَم أتلفظ بتلك الكلمة؟

تمتمت ببعض الكلمات غير المفهومة. شلّتني الدهشة من هذا الموقف. شدّت على معصميّ أكثر فأكثر، هزتني، تحدثت ووجهها قريب من وجهي لدرجة أنني شعرت بنفسها عليّ.

- لم أقله لك، لأنني أهتمّ بأمرك ولأنني كنت أرغب في تلقينك هذا الدرس... لن يمكنك الفهم بعد، لكنك ستفكر بالأمر وستتكهن بالأمر. هناك افتراءات كثيرة بحقنا. ربما نقوم بتصرفات كثيرة تؤدي بنا إلى هذا. لكن، فقط، ومثلما ترى، هناك أناس شرفاء، حتى من بين اللواتي يبدون لك الأكثر جنونا والأكثر عرضة للتسويات... كل هذا الأمر يبدو حساسا ودقيقا. وها أنا أكرر كلامي بأنك ستفكر بالأمر وستفهمه.

- أفلتي يديّ، همهمت بالقول باضطراب كبير.

- كلا، لن أفلت يديك أبدا... أطلب مني المغفرة إن كنت ترغب في أن أترك يديك.

وبالرغم من نبرتها الساخرة، شعرت بأن حفيظتها تُثار، وبأن دموع الغضب تصعد إلى عينيها، من جرّاء إهانتي لها. تملكني شعور بالتقدير والاحترام الحقيقي لهذه المرأة الساحرة جدا، القوية جدا، شعور بدأ يكبر في داخلي. لقد تغلبت أناقتها الشبيهة بأناقة الفرسان بعفة على حماقة زوجها، فهذا المزيج الذي بداخلها، المصنوع من الدلال والقسوة، واستخفافها بكلام السوء ودور الرجل الذي تلعبه في الحياة الزوجية، والذي تخفيه في عبث تصرفاتها، كل هذا يجعل منها شخصا مركبا جدّا، كان يملأني بالإعجاب.

- آسف! قلت لها بتواضع.

أفلتت معصميّ. سرعان ما نهضت واقفا، بينما بقيت جالسة بهدوء على المقعد، من دون أن تخشى شيئا في هذه العتمة، ولا من رائحة الأوراق المثيرة للقلق. استعادت صوتها الفرح، وهي تقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الآن، سأعود إلى اتفاقنا. وبما أنني امرأة نزيهة، فأنا أسدد ما عليّ من ديون... خذ، ها هي تسميتك سكرتيرا للسفارة. لقد تلقيت هذه الرسالة البارحة مساء.

لاحظت ترددي في الإمساك بالمغلف التي كانت تدّه إليّ:

- يبدو لي، صرخت في وجهي بنبرة ساخرة، أنك حاليا، مضطر لأن تتحمل زوجي.

هكذا جاء حلّ عقدتي الأولى. حين خرجنا من المزود، كان فيليكس جالسا على الشرفة برفقة غوشورو وبيرت. زمّ شفتيه، حين رآني آتيا، وحاملا رسالة تسميتي بيدي. من دون شك كان على دراية بكلّ شيء وهو يسخر مني. انتحيت به جانبا لأعاتبه بمرارة، لأنه تركني أرتكب خطأ مماثلا؛ لكنه أجاب بأن التجربة وحدها تُشكل الشبّان؛ وبما أنني أشرت إليه على بيرت التي كانت تسير أمامنا، طارحا التساؤلات عنها، اكتفي بأن حرك كتفيه إلى أعلى، في إشارة صريحة وواضحة. هكذا كانت عليه الأشياء، وعليّ أن أعترف بأنني، وعلى الرغم من كلّ شيء، لا أفهم جيدا بعد، أخلاق هذا العالم الغريب حيث أن النساء الأكثر نزاهة وشرفا، هنّ من يظهرن هذه المجاملات المتفردة.

لكن ما وجه لي الضربة الأخيرة، كان غوشورو الذي أخبرني بنفسه، بأن والدي دعاه مع زوجته، للمجيء وتمضية ثلاثة أيام في بوكيه. بدا فيليكس بالابتسام، وهو يزف لنا خبر عودته غدا صباحا إلى باريس.

إزاء ذلك، حاولت النجاة بنفسي، إذ تحججت بأنني وعدت والدي بشكل قاطع بأن أعود إلى المنزل ساعة الغداء. كنت قد وصلت إلى آخر الطريق الطويل، حين لاحظت سيدا داخل عربة. من المؤكد أنه السيد نيجون. يا إلهي! أحب جيدا ألا يحدث هذا اللقاء، بعد.

سيأتي غوشورو وزوجته، للإقامة في لو بوكيه، نهار الأحد. أي عبء هو هذا!

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إسكندر حبش

من مواليد بيروت العام 1963، لأم لبنانية (والدتها أرمنية من «درتيول» هُجِّرت منها بعد المجازر التركية بحق الأرمن) وأب فلسطيني (من مدينة «اللد»، هُجِّر إلى بيروت عام النكبة في 1948).

درس في بيروت، وأكمل دراساته العليا في جامعتي «إكس أون بروفانس -مارسيليا» و«رين – الثانية» في فرنسا (الأدب والفلسفة).

عمل في الصحافة، في جريدة السفير اللبنانية، حيث نشر أولى مقالاته فيها العام 1983، وبقي فيها لغاية احتجابها عن الصدور بداية العام 2017، حيث تبوأ في السنين الأخيرة رئاسة القسم الثقافي.

أصدر العديد من المجموعات الشعرية (10 مجموعات)، منها: «بورتريه لرجل من معدن» (1988 – ديوانه الأول)، و«إقامة في غبار» (2020، مجموعته الأخيرة لغاية هذا التاريخ)، وله كتابان بالفرنسية.

له ثلاثة كتب في النقد هي: «مديح اللامرئي» (2003) و«حكاية الحكاية» (2009)، و«حيوات ميتافيزيقية، حيوات تاريخية» (2011)

ترجم إلى العربية ما يفوق الأربعين كتابا في الشعر والرواية والفلسفة والحوارات.

تُرجمت بعض أشعاره إلى اليونانية، والأرمنية، والفارسية، والفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، والألمانية، والإنكليزية، والألبانية، والسويدية، والاسبانية، والكردية، والتركية، والصينية... (وغيرها من اللغات).

شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية والمهرجانات الشعرية، في العالمين العربي والغربي.

حاز العام 2001 منحة إقامة أدبية من «المركز الدولي للشعر – في مدينة مارسيليا الفرنسية» والعام 2006 منحة إقامة من «بيت الكتاب والمترجمين الأجانب – مدينة سان – نازير الفرنسية»، وعام 2007 منحة إقامة في مدينتي أثينا وتيسالونيكي اليونانيتين بدعم من «السيناسبيسموس».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner